

لهذا قد تطارد خيانة الدول العربية لفلسطين أنظمتها

الجمعة 16 أغسطس 2024 09:17 م

تعرضت الحسابات التي شكلت قرارات النخب الحاكمة في المنطقة للتحدي أكثر من أي وقت مضى، مما أدى إلى وضع أكثر خطورة وقابلية للاشتعال في السنوات المقبلة. في الثاني من أغسطس، اجتذبت صلاة الجنازة على إسماعيل هنية الآلاف إلى مسجد الإمام محمد بن عبد الوهاب في الدوحة لتكريم زعيم حماس الذي اغتيل. وكان من بينهم العشرات من المبعوثين من مختلف أنحاء العالمين العربي والإسلامي الذين سافروا إلى قطر للتعبير عن تضامنهم مع الشعب الفلسطيني وسط الإبادة الجماعية المستمرة التي ترتكبها إسرائيل في غزة والتي أشعلت فتيل الكثير من التوتر في المنطقة. وكان من اللافت للنظر غياب ممثلي حكومات الأردن والسعودية والإمارات والبحرين ومصر والمغرب عن الجنازة. وعلى الرغم من اختلافاتهم السياسية الحاسمة، فقد جمعت مناسبات مماثلة في الماضي، مثل جنازة الزعيم الفلسطيني الراحل ياسر عرفات، الزعماء العرب في عرض رمزي للوحدة والحرز الجماعي. وعلى الرغم من كل التناقضات الصارخة التي تشوبها، فقد وجدت الدول العربية في السابق أنه من الضروري أن تولي اهتماماً لمسألة تحرير فلسطين في نظر شعوبها، وإن كان ذلك في أغلب الأحيان بالأقوال وليس بالأفعال. ولكن منذ قمعها العنيف للانتفاضات العربية، لم تعد الأنظمة الاستبدادية في حاجة إلى إضفاء الشرعية على حكمها من خلال دعمها المعلن لفلسطين. فقد أصبحت الآن تتمتع بحرية التصرف في ملاحقة سياسات غير شعبية إلى حد كبير، بما في ذلك التطبيع مع إسرائيل. وعلى هذا فإن هذه الغيابات في الدوحة ليست سوى أحدث مثال على التحول في أسلوب هذه الأنظمة وجوهرها، والذي كان قيد الإعداد لأكثر من عقد من الزمان، وأصبح أكثر وضوحاً منذ السابع من أكتوبر. وعلى الرغم من كل التناقضات التي تشوبها، فقد وجدت الدول العربية في السابق أنه من الضروري أن تولي اهتماماً لمسألة تحرير فلسطين في نظر شعوبها. والواقع أن العديد من الدول العربية عرضت على إسرائيل دعماً كبيراً منذ شنت إسرائيل هجوماً على غزة. وقد أدى هذا إلى تسليط الضوء على صورة إقليمية طويلة الأمد لكيفية تجنيد هذه الدول في النظام الأمني الإسرائيلي. ولقد ذهب البعض إلى حد حشد قدراتهم العسكرية لاعتراض الضربات الانتقامية التي تشنها إيران والميليشيات الإقليمية وإعادة توجيه البضائع عبر طرق تجارية بديلة رداً على الحصار المفروض على الشحن الإسرائيلي في البحر الأحمر. ومن جانبها، قامت مصر بدوريات مخصصة على حدودها مع غزة بالتنسيق الوثيق مع إسرائيل، الأمر الذي أدى إلى تفاقم الكارثة الإنسانية غير المسبوقة التي تتكشف في القطاع المحاصر. في العصور السابقة، كان من غير الممكن تصور رؤية الأنظمة العربية وهي تتصرف في تحالف مفتوح مع إسرائيل. وهذا يثير تساؤلات حول كيفية نشوء مثل هذا الواقع وما هو التأثير الذي قد تخلفه اللحظة الحالية على هذه التحالفات في المستقبل.

استثناء فلسطين

تاريخياً، قدمت قضية فلسطين رافعة ملائمة للحكام الاستبداديين العرب لتأسيس شرعيتهم من ناحية وتوجيه السخط الشعبي من ناحية أخرى. شكل تحرير فلسطين عنصراً أساسياً من عناصر الهوية الوطنية العربية الحديثة، ومنذ الخمسينيات فصاعداً كان في قلب المشروع القومي العربي للرئيس جمال عبد الناصر في مصر ومنصة حزب البعث عندما صعد إلى السلطة في سوريا والعراق. لقد رفع ملوك الخليج لواء فلسطين في كثير من الأحيان لتأسيس شرعيتهم الخاصة بعد الاستعمار، وتعزيز مكانتهم الإقليمية، واستنباط رضا شعوبهم. واستئنبت الأنظمة التي كانت معروفة بعدم تسامحها مع التعبئة الشعبية فلسطين. وسمحت للاحتجاجات الجماهيرية، وإنشاء المنظمات غير الحكومية وبعثات المساعدات، والتعبير الثقافي الشعبي لدعم الفلسطينيين بالازدهار، حتى في حين لم تظهر أي تسامح مع نشاط مماثل على الجبهة السياسية المحلية. وافترض علماء السياسة منذ فترة طويلة أن "ديمومة الاستبداد" لهذه الأنظمة كانت ترجع جزئياً إلى قدرتها على تشتيت انتباه السخط الشعبي وصرفه. وفي هذه الحالة، كانت فلسطين بمثابة صمام مفيد لتخفيف الضغط. وحتى مع توقيع دول مثل مصر والأردن على معاهدات سلام مع إسرائيل، شعر حكامها مع ذلك بالحاجة إلى مواصلة دعواتهم الخطابية لتحرير فلسطين. لقد اتخذوا تدابير قوية (وإن كانت رمزية في الغالب) رداً على الغضب الواسع النطاق إزاء العنف الاستعماري الصهيوني، بما في ذلك قطع العلاقات الدبلوماسية بشكل دوري والحد بشدة من التبادلات الاقتصادية والثقافية مع إسرائيل. وقلبت الانتفاضات العربية وما أعقبها هذه الصيغة التي كانت موثوقة رأساً على عقب. وفي أعقاب الاحتجاجات الشعبية التي اندلعت في عام 2010 وأدت إلى إضعاف أو انهيار عدد من الأنظمة، اجتاحت المنطقة موجة مضادة للثورة. وقد تجلى ذلك بشكل خاص في الانقلاب العسكري في عام 2013 الذي أطاح بالانتقال الديمقراطي الهش في مصر ونصب عبد الفتاح السيسي حاكماً استبدادياً لأكبر دولة عربية. كما شهدت تونس نهاية مفاجئة لانتقالها الديمقراطي عندما أقال الرئيس قيس سعيد البرلمان المنتخب وعلق العمل بالدستور في عام 2021. وفي الوقت نفسه، غرقت التحولات ما بعد الاستبدادية في اليمن وليبيا والسودان في حروب أهلية مدمرة ترعاها قوى إقليمية. وفي الوقت نفسه، سحقت قوات أرسلتها دول الخليج الاحتجاجات الجماهيرية في البحرين. واستسلمت الحركة الثورية في سوريا للتدخلات الأجنبية، مما أدى إلى تدمير البلاد وعزلها.

الإفلاس الأخلاقي

لقد أثبتت الانتفاضات العربية، من بين أمور أخرى، أن فلسطين لم تكن في العقود السابقة مجرد إلهاء للمجتمعات العربية بل كانت بدلاً من ذلك موقعاً للتعليم السياسي الجماهيري في حد ذاته، حيث تم تشكيل السرديات والهويات السياسية البديلة في تحدٍ لتلك التي طرحها الحكام

لقد كشف النضال من أجل فلسطين عن نقاط الضعف البنيوية والإفلاس الأخلاقي للأنظمة العربية التي سمحت بنجاح وتوسع المشروع الصهيوني في وسطها بينما كانت تقترب منه باستمرار من حيث إعادة تنظيمها الاستراتيجي

وبالتالي، لا يمكن فصل تأثير الحرب الإبادة الجماعية التي تشنها إسرائيل في فلسطين على المنطقة الأوسع عن التطورات السياسية والاجتماعية والاقتصادية الأوسع نطاقاً في العقد الماضي

تم تحديد هذا العصر إلى حد كبير من خلال المحاولات العدوانية لإعادة ترسيخ النظام الإقليمي الاستبدادي، والذي تديره بشكل رئيسي حكومتا السعودية والإمارات

وإلى جانب نشر جيوشها وقوات بالوكالة، تحملت هذه الأنظمة أيضاً حصة كبيرة من العبء الاقتصادي اللازم لاستقرار الدول المتعثرة وطي صفحة التعبئة الجماهيرية التي كانت مدفوعة بالاضطرابات الشعبية التي ميزت الفترة السابقة

وبهذا، نسقت هذه القوى الإقليمية المحتملة بشكل وثيق مع الإدارات الأميركية المتعاقبة التي سعت إلى "الاستقرار" في شكل دعم الدكتاتوريات القمعية وترك المنطقة في أيدي موثوقة بينما سعت الولايات المتحدة إلى إعادة تأكيد نفسها في أماكن أخرى، وخاصة في منافساتها المستمرة مع روسيا والصين

الصفقة الحاكمة الجديدة في معظم المنطقة العربية هي صفقة القوة العنيفة القسرية، كما يتضح من خلال السجن الجماعي للمعارضين السياسيين، وإسكات المعارضة، وتشديد السيطرة على وسائل الإعلام، وإضفاء الطابع الأمني على المجتمع

وبسبب عدم الحاجة إلى تقديم الخدمة الشفهية لقضية فلسطين، اقتربت هذه الأنظمة أكثر فأكثر من رؤية أميركية إسرائيلية للأمن الإقليمي من شأنها أن تجند عدداً من الدول في الصراع ضد إيران وحلفائها

كانت النتيجة الرئيسية لهذه العملية ما يسمى باتفاقيات إبراهيم، التي أدت إلى تطبيع العلاقات بين إسرائيل والعديد من الدول العربية مع اصطفاة نظام تلو الآخر لاحتضان مستعمرة المستوطنين، أصبح من الواضح للجميع أن الموقف العربي التقليدي القائل بأن التطبيع لن يحدث حتى يتحقق تقرير المصير الفلسطيني لم يكن أكثر من كلمات جوفاء من عصر مضى

أرض مهترزة

في أعقاب صفقات التطبيع التي أبرمها دونالد ترامب مع الإمارات والبحرين والمغرب والسودان، اعتقدت إدارة الرئيس الأمريكي جو بايدن أنها يمكن أن تقدم لإسرائيل أكبر جائزة على الإطلاق: التطبيع مع السعودية، التي كانت على استعداد لتدشين سياسة "الركائز المزدوجة" الجديدة

كانت رؤية للشرق الأوسط حيث سيتم تمكين إسرائيل والسعودية عسكرياً واقتصادياً للهيمنة على المنطقة بشكل مشترك في المستقبل المنظور

في خطابه أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة في سبتمبر الماضي، تفاخر رئيس الوزراء الإسرائيلي بنيامين نتنياهو بـ "ممر السلام والازدهار" الذي يربط آسيا وأوروبا من الإمارات إلى إسرائيل

لقد انهارت محاولة مماثلة لدعم السعودية وإيران باعتبارهما القوتين المزدوجتين في المنطقة خلال السبعينيات بسقوط الشاه أثناء الثورة الإيرانية عام 1979. ويبدو أن هذه النسخة الأخيرة من السياسة قد بنيت على أرضية أكثر اهتزازاً

ومع ذلك، بحلول بداية أكتوبر الماضي، تم تطهير قضية فلسطين بالكامل من السياسة العربية

لقد حُكِم على ملايين الفلسطينيين بتحمل بؤس الحياة في معسكر الاعتقال في غزة أو نظام الفصل العنصري والتطهير العرقي الجزئي في الضفة الغربية والقدس، في حين لم تر أجيال من اللاجئين نهاية في الأفق لنفيهم القسري

لقد أجبرت أحداث السابع من أكتوبر والحرب الإبادة الجماعية التي أعقبها فلسطين على العودة إلى قمة الأجندة الإقليمية، الأمر الذي أصاب الولايات المتحدة وإسرائيل وشركائهما العرب بالإحباط الشديد

الخيانة

الدول العربية التي لعبت دورها على نحو جيد من خلال تزويد إسرائيل بالدعم العسكري والاقتصادي الحاسم تواجه الآن تحدياً أعظم كثيراً في نضالها من أجل الشرعية الداخلية مقارنة بما واجهته قبل هذه الحرب

الفجوة بين الحكام العرب وشعوبهم لم تكن قط أوسع من أي وقت مضى، وهو وضع غير قابل للاستمرار في الأمد البعيد

لقد أعادت الأحداث الأخيرة فتح الأسئلة التي كانت مدفونة لفترة طويلة فيما يتصل بأفاق التعبئة الشعبية، والتي أجاب عليها المستبدون في المنطقة بمزيد من القمع

في أواخر أكتوبر، انفصلت مسيرة احتجاجية نادرة ومُدارة بعناية في القاهرة لدعم الفلسطينيين عن المسار الذي وافق عليه النظام وحاولت دخول ميدان التحرير، حيث فرقتها قوات الأمن بسرعة

ولم يسمح نظام السيسي بأي احتجاجات منذ ذلك الحين

وفي العديد من دول الخليج، تم حظر التلويح بالأعلام الفلسطينية وارتداء الكوفية بشكل صارم وحتى الصلوات التي أقيمت لدعم الفلسطينيين قمعتها الشرطة السعودية في مكة

أثارت مقاطع فيديو انتشرت على نطاق واسع لشباب مغاربة يستمتعون بالحياة الليلية في إسرائيل ويشيدون بمضيفيهم موجة من الغضب، حيث حمل العديد من المغاربة النظام المسؤولية عن هذا العرض القاسي

حقيقة الأمر هي أن الفجوة بين الحكام العرب وشعوبهم لم تكن أوسع من أي وقت مضى، وهو وضع من الواضح أنه غير قابل للاستمرار في الأمد البعيد

بالرغم من كل المناقشات حول قلب النظام الليبرالي رأساً على عقب بسبب الدعم الغربي الثابت للإبادة الجماعية التي ارتكبتها إسرائيل، فمن الجدير بالذكر أن هذه اللحظة كشفت الأنظمة العربية أيضاً

اهتز النظام الليبرالي إلى جوهرة على مستوى العالم، فسيخلف ذلك ارتدادات هائلة في المنطقة، وخاصة مع تدهور الظروف الاجتماعية والاقتصادية، مما يؤدي إلى تفاقم الشعور بالإحباط والخيانة

"لحظة تحديد الجيل"

جلبت هذه اللحظة إلى السطح أيضاً أسئلة حول الدور الذي تستعد حركات المقاومة للعبه في مستقبل المنطقة

الأنظمة العربية التي بذلت جهودًا كبيرة لفرض رؤية طائفية عميقة للسياسة الإقليمية لسنوات أصبحت الآن في حيرة من أمرها فيما يتعلق بكيفية مواجهة الشعبية الجديدة لهذه الجماعات []
ويُنظر إلى حزب الله في لبنان وأنصار الله في اليمن على نطاق واسع باعتبارهما الفاعلين الإقليميين الوحيدين الراغبين في تحدي العدوان العسكري الإسرائيلي []
والواقع أن الحسابات التي شكلت قرارات النخب الحاكمة في المنطقة تعرضت للتحدي أكثر من أي وقت مضى، مما أدى إلى وضع أكثر خطورة وقابلية للاشتعال في السنوات المقبلة []
يبدو أن استراتيجيتهم الوحيدة هي الانتظار على أمل استعادة النظام الذي سبق السابع من أكتوبر (أو نسخة منه) في أعقاب الهجوم الإسرائيلي الحالي []
ولكن حتى لو مضت السعودية قدماً في خططها للتطبيع، فإنها بذلك تتحالف مع دولة إسرائيلية ضعيفة للغاية، وقد عانت قوتها العسكرية المزعومة وحصانها الدبلوماسية من هزائم غير مسبوقه [] وفي الوقت نفسه، ستواجه الولايات المتحدة مقاومة أكبر كثيراً في الإشراف على هذا التحالف بعد دورها الحاسم في تسليح إسرائيل وحمايتها من المساءلة []
وعلاوة على ذلك، ونظراً للموت والدمار غير المسبوقين تاريخياً اللذين حدثا في غزة خلال الأشهر العشرة الماضية، فإن فلسطين لن تختفي من الوعي الجماعي للمنطقة، حتى لو تم محوها من الكتب المدرسية السعودية []
الأسئلة المحيطة بإعادة البناء وإعادة التوطين، فضلاً عن مسائل الحكم السياسي والاهتمام باحتياجات الناجين، ستتطلب اهتمام السكان في جميع أنحاء المنطقة []
ولكن الأهم من ذلك أن هذه لحظة حاسمة لن تُنسى []
ورغم أن الانتفاضات السابقة وأسبابها ربما دُفنت تحت وطأة القمع العنيف والحروب الأهلية والنهضة الاستبدادية، فإن الشباب العربي اليوم يشهد على هذه الإبادة الجماعية والدور الذي لعبته نخبهم الحاكمة فيها []
ومن المؤكد أن هذا سيؤثر على معتقداتهم الأساسية وخياراتهم السياسية لسنوات قادمة []
<https://www.middleeasteye.net/opinion/palestine-arab-regimes-betrayal-may-haunt-them>